أمس وغداً

للأستاذ أحمد أمين

قرأت مرة أن سرياً أمريكياً كان له مصانع ومتاجر، كأعظم ما يكون من مصانع ومتاجر، أصابتها النار فأتت عليها، وقدرت الخسائر بملايين الدولارات

وكان هذا السري في السابعة والستين من عمره، ليس له قوة الشباب، ولا أمل الشباب، ولا طموح الشباب؛ وكانت ثروته الضائعة ثروة العمر، وبجهود العمر، ونتيجة العمر

أتى اليه «مكاتب» يسأله عن هذه الكارثة وأسبابها ومقدارها فأجابه: «لست أفكر في شيء من ذلك، إنما يملك عليّ كل فكري الآن: ماذا أنا صانع غداً»

يعجبني هذا الاتجاه العملي في التفكير، فانه دليل الحياة، وعنوان القوة، ومبعث النشاط؛ فما دمتَ حياً ففكر دائماً في وسائل الحياة، ووسائل السعادة في الحياة؛ وتلك كلها أمامك لا خلفك، وفي الغد لا في الأمس

لقد دل هذا السري بإجابته على أنه يقتني عقلية أقومَ مما رعته النار، ونفسية خالدة لا تفنى بفناء المال

إن الحياة الناجحة تفكر في الغد، والحياة الفاشلة تبحث في الأمس. وقديماً قالوا: «إذا أفلس التاجر فتش في دفاتره القديمة». وقال الشاعر وقد رأى بني تغلب لا يعملون عملا جديداً مجيداً، ويكتفون برواية قصيدة قالها عمرو بن كلثوم التغلبي في مدحهم:

ألهى بني تغلب عن كل مكرمة ... قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم

يفاخرون بها مذْ كان أولهم ... يا للرجال لشعر غير مسئوم

ولأمر ما خلق الله الوجه في الأمام ولم يخلقه في الخلف، وجعل العين تنظر إلى الأمام ولا تنظر إلى الخلف، وأراد أن يجعل لنا عقلاً ينظر إلى الأمام وإلى الخلف معاً، وأن يكون نظره إلى الخلف وسيلة لحسن النظر إلى الأمام؛ فعكس قوم الفطرة الانسانية ونظروا بعقولهم إلى الخلف وحده، وقلبوا الوضع فجعلوا النظر إلى الخلف غاية لا وسيلة

من هؤلاء الذين نُكِّسوا في الخَلق من إذا حدثتهم فيما هم صانعون غداً حدثوك عما صنعه آباؤهم الأولون، وكيف حاربوا وكيف انتصروا، وكيف سادوا العالم، وكيف وكيف. وهذا حق لو اتخذ وسيلة لعمل مستقبل، واستُحثت به الارادة لعمل مستقبل، وضُرب مثلا لمعالجة مشاكل المستقبل؛ أما أن يكون غرضاً في نفسه فحديث العجزة ومن أصيبوا بأنيميا «الفكر» وضعف الارادة

وممن نُكِّسوا في الخلق هؤلاء الذين يثيرون العداوات القديمة والأحقاد القديمة بين رجال الأمة وقادتها؛ فاذا طالبهم أن ينظروا إلى الأمام، ويتكيفوا بما يتطلبه المستقبل، أبوا إلا أن يذكروا لك تاريخ الأمس، وحزازات الأمس، وسخائم الأمس، وما دروا أنهم بهذا يعطلون مصلحة المستقبل وخير المستقبل، أو دروا ولكنهم الماكرون الخادعون. فليس يصح أن ينظر في الأمس إلا لتجنب أغلاط الأمس في المستقبل، والانتفاع بصواب الأمس وخطئه في المستقبل

وممن نكسوا في الخلق هؤلاء الذين جمدت عقولهم فاعتقدوا أن كل شيء كان خيره في الأمس وشره في الغد؛ فخير النحو ما وضعه سيبويه، وخير البلاغة ما قاله الجاحظ، وخير الفلسفة ما قاله ابن سينا وابن رشد والفارابي، وخير عصور الدين ما سبق من العصور، وخير الأخلاق أخلاق آبائنا، وأنه لم يبق في هذا الزمن إلا الخثالة من كل علم وأدب ودين وخلق، وأن العالم في ذلك كله سائر إلى التدهور دائماً، فأمس خير من اليوم، واليوم خير من الغد. فهذه العقلية لا تنفع للحياة وإنما تنفع للصوامع؛ ولا تنفع للجهاد وإنما تنفع للفناء؛ ولا تنفع لمن أرادوا أن يتبوءوا مكاناً في الحياة وانما تنفع من أرادوا أن يتبوءوا مكاناً في القبور. إن النحو الذي ننشده هو في المستقبل لا في الماضي؛ واللغة التي تصلح لنا وتؤدي مطالبنا في الحياة هي في المستقبل لا في الماضي؛ والأدب الذي يمثل نزعاتنا حق تمثيل هو في المستقبل لا في الماضي؛ والأخلاق التي تلائم الموقف الاجتماعي الذي نقفه اليوم هي في المستقبل لا في الماضي؛ وليس لنا من الماضي إلا ما يصلح للمستقبل بعد غربلته وابعاد ما تعفن منه. إن موقفنا بين الماضي والمستقبل يجب أن يكون كموقف وجهنا فينا؛ وضعه الطبيعي في الأمام؛ ولكن الانسان قد يلوى عنقه وينظر إلى الوراء إذا دعت الضرورة، ثم يعود سيرته الأولى من النظر إلى الأمام ويسير لوجهه ويمضي قُدُماً لشأنه؛ ولن ترى انساناً طبيعياً

لوى عنقه دائماً ، ونظر الى الخلف دائماً

ومن نُكسوا فى الخلق هؤلاء الذين وقفوا ينتظرون القدر ؛ أولئك لم ينظروا للمستقبل ، ولكن ينظرون الى ما يفعل بهم المستقبل ؛ أولئك أحجار يفعلون ولا يفعلون ، ويتأثرون ولا يؤثرون ؛ وإنما مستقبلك فى يدك وفك دخل كثير فى صياغته ، فان شئت تكن فقيراً ، وإن شئت تكن غنياً ـ الى حد كبير ـ وإن شئت تكن سعيداً ، وإن شئت تكن شقياً ؛ وليس يستسلم للقدر إلا من فقد إرادته وأضاع إنسانيته

لقد أتى على الناس زمان كان الاستسلام للقدر عنوان « الولاية » ورمز القداسة ، وكلما أمعن الانسان فى التجرد عن الدنيا أمعن الناس فى تعظيمه وتبركوا به ولثموا يده ؛ ولكن هذا تقدير الماضى ؛ أما تقدير اليوم والمستقبل فالولاية والقداسة فى العمل ، والولى أو القديس هو المصلح ، وهو الذى يبنى المجد بعمله لأمته وللإنسانية ؛ وهو الذى يواجه العمل فى شجاعة وإقدام ، لا الذى يفر من الميدان ؛ وهو الذى يرسم خطة العمل وينفذها ، لا الذى يعزى عن الكوارث ويعود المرضى ويلطف وقع البؤس ؛ وهو الذى يشق الطريق لمحو الفقر عن الفقراء والبؤس عن البؤساء ، لا الذى يذرف الدمع ويوصى بالصبر على احتمال الفقر من غير حث على العمل ، والتفكير فى طرق الخلاص من البؤس ؛ وليس الولى والقديس من يحلم بل من يعمل

مضى الزمن الذى كنا نرصد فيه النجوم لنتطلب السعادة من سلطانها ، ونجتنب الشقاء فى أوقات نحسها ، وأصبحنا نشعر بأن النحس نحس الخلق وموت الارادة ، والسعادة حياة النفس وتفتح الأمل ، والمشى فى مناكب الأرض ، وإعمال اليد والعقل فى جلب الرزق ، وجلب الخير ، ودفع الشر ، ودفع البؤس والفقر

* * *

خير لك إن كنت فى ظلمة أن تأمل طلوع الشمس غدا من أن تذكر طلوعها أمس ؛ فلكل من الظاهرتين أثر نفسى ما كس للآخر ، ففى ترقبك طلوع الشمس غدا الأمل والطموح الى ما هو آت ، وفى هذا معنى الحياة ؛ وفى تذكرك طلوعها أمس حسرة على ما فات ، وألم من خير كنت فيه الى شر صرت فيه ، وفى ذلك معنى الفناء

وفرق كبير بين من يُلطَم اللطمة فلا يكون له وسيلة إلا البكاء ، وتَذَكُّر اللطمة ثم البكاء ، ثم تذكر اللطمة ثم البكاء ، وبين من يلطم اللطمة فيستجمع قواه للمكافحة . والحياة كلها لطمات ، وأعجز الناس من خارت قواه أمام أول لطمة فهرب . ولو أنصف الناس لقوموا الناس بمقدار كفاحهم ، لا بمقدار فشلهم ونجاحهم

* * *

شر ما ألاحظ فى الشرق حنينه الشديد الى الماضى ، لا أمله القوى فى المستقبل ، واعتقاده أن خير أيامه ما سلفت لا ما قدمت ، وإعجابه الشديد بأعمال الماضين وأعمال الماصرين ؛ له منظاران : منظار مكبِّر يلبسه إذا نظر الى الماضى ، ومنظار مصغِّر اسود يضعه إذا نظر الى الحاضر والمستقبل . يلذه أن يطيل البكاء على الميت ، ولا يلذه أن يتدبر فيما يجب أن يفعله الأحياء ؛ يستسهل النفقات مهما عظمت على الميت ، ويستكثر نفقات الطبيب وأثمان الدواء المريض . يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تدل على عظم الماضى ، ولا يعجبهم أن يتمثلوا الأمثال تبعث الأمل فى المستقبل ؛ ففى أعماق نفوسهم أن قول القائل : « ما ترك الأول للآخر » خير من القول : « كم ترك الأول للآخر » . ويلوكون دائما : « لا جديد تحت الشمس » ، ولا يعجبهم أن تقول إن كل ما تحت الشمس فى جدة مستمرة ، والمستقبل مملوء بالجديد . وإذا رأوا كلمة فى كتاب قديم تدل ـ ولو دلالة كاذبة ـ على نظرية جديدة طاروا بها فرحا ، لأن ذلك يلائم ما فى نفوسهم من تعظيم الماضى وتحقير الحاضر والمستقبل . هم يعيشون فى أحلام ، ولا يريدون أن يعيشوا فى حياة واقعة ، وحول هذه المعيشة الحالة ينسجون دائماً ما يوافقها ويمازجها ويسايرها ؛ يكتفون بالأمل أن ينعموا بالآخرة ؛ وماذا عليهم لو عملوا لينعموا فى الدنيا والآخرة ؟

أحمد أمين

فى العدد القادم

ابتداء من العدد القادم سننشر فصولا قيمة فى (نظرية النسبية الخصوصية) تتناول الكلام (١) فى الزمان ونسبيته ، (٢) وحدة قوانين الطبيعة والبعد الرابع فى النسبية ، (٣) مبادئ الميكانيكا الحديثة ، (٤) مبادئ الديناميكا الجديدة ، (٥) كون منكوفسكى والفاصلات الفراغية والزمانية ، بقلم الدكتور الفاضل الأستاذ اسماعيل أحمد أدهم عضو أكاديمية العلوم الروسية